المشكلات

٢ـ اللغة العـــربية

للأســـتاذ محمد عرفه

لماذا أخفقنا فى تعليمها ؟ — كيف نعلمها ؟

بينا فى مقالنا السابق جهود رجال العلم والتربية فى سبيل إصلاح تعليم اللغة العربية ، تلك الجهود التى إن أخطأها التوفيق فلن يخطئها أن تكون حقيقة بالشكر وعرفان الجميل

إن هـذه الجهود المختلفة دليل على عنايتهم باللغة العربية ، وحرصهم عليها ، ومعرفتهم بقدرها ، ودليل على أنهم يحبون شباب هذه الأمة ، ويودون أن يسهلوا عليهم ما صعب ، ويقربوا إليهم ما بعد ، وأن يسهروا ليناموا ، وأن ينصبوا لهم ليجدوا السعادة والراحة

وهـذا وحده جهد مشكور ، وصنيع غير مكفور ، جدير بالإجلال والتعظيم ، سواء أوفقوا فيما حاولوا أم لم يوفقوا .

ورب قائل يقول : لقد وضعت أن المعاهد فى مصر أخفقت فى تعليم اللغة العربية ، وأخذتها مقدمة مسلمة ، وكانت بحاجة إلى أن تقيم عليها الدليل ، فلعلها لم تخفق فى تعليم اللغة ، ولعلها نجحت أعظم النجاح ، ولعل ما هو مشهور بين رجال التعليم من أنها أخفقت فى هذه المهمة — من القضايا التى اشتهرت لغرض من الأغراض ، فاذا نقدت تبين خطؤها . فلسنا نسايرك حتى تقيم الدليل على هذا الإخفاق

وأقول إنى أوافق هذا القائل أنه لا بد من أن يقام الدليل على هذه المقدمة ، ولا يصح أن تترك دون بيان

إن المرء يكون قد أتقن لغة ما إذا كان يتكلم ويقرأ ويكتب بهذه اللغة ، جارياً على قواعدها ، مراعياً قوانينها ، لا يلحن فيها ولا يخطىء ، وأن المدرسة تكون قد نجحت فى تعليم اللغة إذا كان الذين تخرجوا فيها جميعهم أو أكثرهم على هـذه الصفة ، فهل من تخرجوا فى مدارسنا كذلك !

أما الكلام باللغة العربية فلا تكاد تجد أحداً يتكلم بها ، فالشعب كله يصطنع فى التفاهم والتخاطب اللغة العامية ، وليس من الناس من يصطنع اللغة العربية إلا فى الندرة وعلى سبيل الشذوذ ، حتى أن دروس اللغة العربية تلقى بالعامية ، فقد دحلت العامية على العربية حجرات دروسها ، وغزتها فى معاقلها ، وأخص الأماكن بها

ومن المضحك حقاً أن تجد مدرس النحو أو الصرف أو البلاغة أو مفسر النصوص العربية من شعر ونثر يلقى دروسه وقواعده بلغة عامية ، لا يراعى ما يقول من قوانين ، ولا يقوم لسانه بما يسرد من قواعد

أن يضحكوا على جدودهم هازئين مستخرين ، وأحسبهم لن يفعلوا غير ذلك إذا لم تصلهم عنا غير هذه الأفلام المخزية التى ألفها لنا ولهم أنصاف المتأدبين منا وأرباعهم ومن لا تصلهم بالفنون الأدبية صلة ما ... أما علاقة السينما بالنهضة التمثيلية فلا يجحدها أحد ... وأقسم لو أن لنا ثقافة مسرحية غير عليها روح طويل من الزمن ، وأقسم لو أن لنا مسرحاً مصرياً محترماً يضارع فى رقيه المسارح الأوربية أو المسرح الأمريكى ، لكانت لنا نهضة سينمائية عالية كافية لأن تلفظ من ذاتها موضوعات تلك الأفلام المصرية التى أخرجت إلى الآن فى غفلة من تأخرنا فى هذا الميدان

ولا يفوتنى قبل أن أختم هذه الكلمة فى العلاقة بين الأدب والسينما أن أنوه بتاريخنا الملىء الحافل بالأحداث الجسام ، فقد آن لنا أن نخرجه مصوراً ناطقاً تشهده الجماهير فيثير فيها الكبرياء الوطنى ، وتطلع منه على ما لم تكن تعلم من مشاهد البطولة الوطنية وأمجاد العصور الخوالى ، وما عمل الآباء والأجداد فى سبيل مصر الخالدة من صنائع العزة وفعال العظمة ... نحن إن صنعنا ذلك خلقنا عملاً أدبياً جليلاً لجميع كتابنا وأدينا لتاريخنا خدمة تخلد على وجه الزمان ، ثم يسرنا لناشئتنا استذكار هذا التاريخ الطويل الذى نرهقهم بمذاكرته فى بطون الكتب مع ما فى هذه المذاكرة الصامتة التافهة البليدة من منافاة لروح التربية الحقة ، وما تنتهى إليه من قلة الغناء ... بعكس مشاهدة التاريخ المصور الناطق السينمائى الذى يلصق بالذاكرة ، ويخلد فيها ، وينمى فى الطالب تلك الملكات التى يفتقر إليها معظم الطلبة المصريين .

دريني خشبة

فأما الكتابة والقراءة بها ، فلا يقرأ باللغة الفصحى ولا يكتب إلا فئة قليلة ، تمكنت من حفظ لسانها من الخطأ عند القراءة والكتابة ، وجمهرة المتعلمين لم يصلوا إلى هذه المنزلة ، فالشاب يتخرج في المدرسة ، أو فى المعهد ، ولسانه لا يكاد يقيم جملة ، أو يعرب كلاما ، ولا يستطيع أن يعبر عن خلجات نفسه بأسلوب صحيح مستقيم

وإذا لم يكن هذا إخفاقا ، فماذا يكون الإخفاق ؟

وكما لم توفق مدارسنا فى الغاية لم توفق فى الوسيلة ، أو قل أنها لم توفق فى الغاية لأنها لم توفق في الوسيلة ؛ فالوسيلة إلى تعلم اللغة هى دروسها ، ولما تستطع مدارسنا أن تحببها إلى التلاميذ ، فهم يأتون إليها متثاقلين ، ويستمعون إليها كارهين ، وهم يبغضونها بغضاً يملأ ما بين جوانحهم . فالنحو عندهم ثقيل بغيض ، وكذلك الصرف ، وعلم البيان الذى قال فيه بعض العلماء — أنه لا ثواب فى تعلمه — يشير إلى أنه لا مشقة فيه على المتعلم ، وهو يطلب لما فيه من لذة ، فجزاؤه فيه ، قد بغضته إليهم هذه المدارس أيضاً ؛ وليس العيب في ذلك على الشباب ، لأنهم يدرسون الهندسة والحساب والطبيعة فى غير ضيق ولا حرج ، بل يدرسونها فى شغف ومحبه ، إنما العيب على دروس اللغه العربيه وحدها .

فلا عجب بعد ذلك إن لم ينتفعوا بهذه الدروس ، لأن الانتفاع بالشيء على قدر المحبة له ، والرغبة فيه

هذا شيء مخيف حقاً ، له نتائجه الخطيرة ، فإما أن نعمل على تسهيل الانتفاع باللغة العربيـة وتيسيرها على الدارسين والمتعلمين وتزيين علومها فى قلوبهم ، وإما أن نتحمل أمام التاريخ والأجيـال عواقب هذا التفريط والإهمال ، لأن الشيء البغيض الملول لا يعمر طويلاً ، ولا يمكن أن يكره الناس عليه دائماً

وهناك أمر آخر ينتج من الخيبة فى تعليم اللغة العربيـة ، يخشاه رجال الاجتماع أعظم الخشية ، ويشفقون منه أشد الإشفاق ، وهى بقاء الحال على ما هى عليه فى مصر ، من اصطناع لغة للخطاب ، وأخرى للكتاب ، بينها وبين جمهور الشعب بون شاسع ، وعقاب سعاب

وإنما كانوا يخشونه ، ويشفقون منه ، لأن ذلك يؤدى إلى إطالة أمد جهل الأمة وتأخرها ، لأن العلم والأدب قد كتبا بلغة لا يفهمها جمهور الشعب ، وهى العربية ، فلا سبيل إلى وصوله إليها

أما إذا نجحت المدرسة فى تعليم العربية ، وتكلم بها المتعلمون وهم مخالطون للشعب ، فعلى مرور الزمن يسهل عليه فهم اللغة العربية ويتسرب إليه كثير من مفرداتها وتراكيبها ، وربما علمها فصارت لغة الخطاب ، لغة الكتاب ، وهذا كسب ليس بالقليل ، فكل ما كتب من علوم وأخلاق وآداب يكون حينئذ فى متناول جمهور الشعب ، فيرقى إلى الذروة التى ينشدها له المصلحون

وهناك طائفة من رجال الاجتماع ترى أنه إذا خابت المدرسة فى تعليم العربية ، وخابت الأمة فى اصطناعها ورفع لغة الحديث إلى اللغة التى تكتب بها العلوم والآداب ، فلا مناص من كتابة العلوم والآداب باللغة التى تفهمها الأمة ، لتنتفع بها ، ولتبلغ الأمل المنشود ، لأنه خير للأمة أن تخسر اللغة العربية وتكسب العلم الذى به نماء عقولها ، والآداب التى بها تقويم أخلاقها ، من أن تربح العربية وتخسر العلم والأدب

فأنتم ترون أن الأمر جد خطير ، وأنه يعنى حياة اللغة العربية أو موتها ، ونجاح المتعلمين فى تعلمها أو إخفاقهم ، ورقى الأمه أو انحطاطها

لذلك يجب أن نعمل جاهدين ، وأن نجهد مخلصين ، حتى نعرف الأسباب فى هذا الإخفاق ، وأن نفعل الممكن وغير الممكن لنجعل تعليمها ناجحاً ، ولنحبب درسها إلى التلاميذ ، وبذلك نتقى هذه النتائج السيئة ، ونوفر على الشباب وقته وجهوده ونحمى اللغة العربية من الضياع والموت

هذا ما دعا رجال العلم إلى معالجة هذه المشكلة

وهذا ما دعانى أيضاً إلى أن أتى بدلوى فى الدلا ، وسأعرض بحثى على القارئين ، أو أولى الأمر فى مصر ، ولعل هذه الدعوة تلقى ما أقدره لها من توفيق — إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله .

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء